خطاب الموت

محمد يشوتي

إذا كان ك . ليفي شتراوس يرى في الزواج المحرم الظاهرة التي جعلت الإنسان يخرج من الطبيعة إلى الثقافة، إذ يرى فيه أساس نشوء المجتمع الإنساني ذلك أنه عندما تُزوج المرأة خارج الجماعة ويتزوج الرجل نفسه خارج العائلة أو القبيلة، فإن ذلك يؤدي إلى قيام علاقات مصاهرة قد تكون أولى العلاقات الاجتماعية التي يتم فيها استعاضة نظام علاقات دموية ذات أساس بيولوجي بنظام قرابة سوسيولوجي(1)، فإن بعض الدارسين يرون أن الوعي بالموت معيار تميز الإنسان عن الحيوان وهو دليل تجاوزه لمجال الطبيعة إلى مجال الثقافة. وتعبر عن ذلك التجاوز المصاحبات التي يرافق بها الإنسان موتاه، وهي مصاحبات ليست من الطبيعة في شيء لأن الإنسان هو الوحيد من بين الكائنات الحية الذي يولي الاهتمام للموتى ويرافقهم بطقوس هي في نهاية الأمر تجليات لسوك ثقافي. (2)

والمناسبات التي يحتفل بها الإنسان كثيرة وتمثل بالنسبة له زمنا يلغي فيه المألوف لمدة تطول أو تقصر حسب طبيعة المناسبة، وتدخل الأعياد ضمن هذه المناسبات التي تقطع امتداد الزمن المألوف. فهي عبارة عن لحظات تفصل في الممتد بين الماضي والآتي محاولة فك رمز هذا الكون وإعطاء معنى للحياة من خلال تقنين الزمن بالتأثير في صيغة الامتداد وتحويله من زمن ممتد إلى زمن متقطع، من اللانهائي إلى النهائي : هنا تنتهي الساعة، هنا ينتهي اليوم، هنا ينتهي الشهر ... السنة، القرن ... كلها قياسات للزمن ولكنها تقطيعات تفصل بين ما مضى وما سيأتي، بين المألوف والخارج عنه. هكذا تكون نهاية الأسبوع حدا للمألوف أي للامتداد، ويكون كذلك شهر رمضان فاصلا بين زمنين مختلفين، وتكون الولادة والختان والزواج فواصل زمنية في حياة الإنسان، فتجزأ هذه الأخيرة إلى مراحل تمثل كل مرحلة قطيعة مع الأخرى وحدا لامتدادها. إن الامتداد يعدم المعنى، فلا معنى للحياة في إطار الممتد، أي في إطار المألوف والمعتاد. فمعنى الحياة كامن في أن للمألوف حدا، أي أن للحياة في نهاية الأمر حدا، وحدها هو الموت.

احتفل العالم مؤخرا بمرور ألفي سنة ودخول البشرية الألفية الثالثة، ولقد أنفقت أموال طائلة استقبالا للعام الجديد. تبادل الجميع التهاني والأماني، تنبأ البعض بحدوث كوارث مختلفة، وتفاءل

البعض الآخر، وانتهى زمن الحفل، وبدأ يوم آخر وسنة أخرى وألفية جديدة، باختصار بدأ زمن آخر. إن الاحتفال برأس السنة الجديدة هو تأبين لسنة انقضت، وهي مدة انقضت من عمر الإنسان. فاحتفال الإنسان بالسنة الجديدة هو في نهاية الأمر احتفال باقترابه من الموت، لأن الحياة سير نحو الموت، وكلما حل عام جديد دنا الإنسان من موته، فكل يوم جديد هو نهاية ليوم مضى وكل ساعة أو دقيقة أو ثانية جديدة هي نهاية لأخرى انتهت دون رجعة. فغريب أن يحتفل الإنسان بالزمن الجديد وينسى أنه يحتفل بموته وكأنه يؤبن ذاته بالتدريج، لأن الاحتفال بالزمن الجديد هو احتفال بزمن لا يعود، وبالتالي فهو احتفال بذات تسير نحو نهايتها : احتفال بموت الذات.

لا يجادل أحد في أن الموت شكل موضوع تأمل منذ القديم، فلقد قررت الأسطورة أصله وفسر الدين مغزاه وتأمله العقل الإنساني منذ فلاسفة اليونان إلى هايدغر وسارتر وجانكليفتش مرورا بفلاسفة الإسلام، لكن رغم تنوع كتابات هؤلاء وإسهامات كل منهم في إغناء الفكر البشري ووسمه بطابعه الخاص، فإن هناك نقطة مشتركة تجمع بين هؤلاء المفكرين جميعا، ذلك أن الموت شكل دائما موضوع تأمل فلسفي محض. أما الموت كظاهرة اجتماعية ثقافية، أي كموضوع للعلوم الإنسانية فكان لابد من انتظار النصف الثاني من القرن 20 ليتحرر من امبريالية الفلسفة ويصبح موضوع بحث ودراسة في مجال التاريخ وعلم الاجتماع والأنتروبولوجيا.

لقد لاحظ المفكرون في الغرب أن هناك فراغا في مجال دراسة السلوكات الجنائزية، وهذا الفراغ راجع إلى التغيرات الجذرية التي طرأت على النظام المجتمعي في الغرب. أمام هذا الوضع كان لابد من التفكير في الموضوع واقتحام لهذا المجال الذي أصبح أحد طابوهات الحضارات الغربية (3). فلمواجهة الانعكاسات السلبية للحضارة الغربية على الإنسان، المتمثلة أساسا في زرع النزعة الفردانية إلى درجة أصبح فيها الإنسان يعاني من الوحدة أثناء موته(4) تكتلت جهود المؤرخين وعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيون والأطباء للبحث في الظاهرة، حيث جعلوا منها موضوع دراسات متعددة نتج عنها تراكم كمي على مستوى الإنتاج المعرفي أدى على المستوى العملي إلى لفت أنظار المجتمع المدني والمؤسسات الحكومية إلى أن للإنسان كرامة لا ينبغي أن يفقدها مع بلوغه سن العجز عن الإنتاج، وكأن الأمر يتعلق بآلة تستعمل لأداء وظيفتها وعندما تبلى يلقى بها في القمامة.

إن الدراسات عن الموت في المجتمع الغربي رغم تعددها وتنوعها غالبا ما تشترك في بعض القواسم. فالمتصفح لها يخرج بملاحظتين : الأولى أن أغلبها دراسات مقارنة، ذلك أنها إما أن تدرس الموت في المجتمع الغربي ذاته لكن في فترات تاريخية مختلفة بغية الوقوف على تطوره اقتصاديا واجتماعيا

وثقافيا، هذا ما نلاحظه مثالا في أعمال فيليب أرييس، وميشال فوفيل، أو يكون الموت موضوع دراسة في مجتمعات أخرى إفريقية أو هندية أو غيرهما وتكون في نفس الوقت مقارنة بما يجري في المجتمعات الغربية وهذا شأن أعمال علماء الاجتماع والأنتروبولوجيين كبوديرار وإدغار موران ولويس فانسان توما، وجان زيغلر، والهم لدى هؤلاء كما هو لدى أولئك هم مشترك يتمثل في إعادة النظر في مشكل الموت اجتماعيا.

الملاحظة الثانية التي لها علاقة بالأولى تتجلى في أن هذه الدراسات لها ميل نحو تمجيد القيم الرمزية القديمة التي كانت تصاحب حدث الموت في المجتمع الغربي القديم وتجعل منه ظاهرة، كما هوالشأن في المجتمعات الأقل تقدما من الناحية التكنولوجية، وهذا التمجيد يكون دائما مصحوبا بنقد سيطرة الاقتصاد والمكننة في المجتمع الغربي. لقد « تغير الموت « هكذا عنون فابر لوس كتابه في أواخر الستينات (5) وهو عنوان غير بريء بالطبع إذ إنه ليس شهادة على التطور والتقدم التقنيين اللذين حققهما الإنسان، بل هو صوت يرتفع ضد التجاوزات واستغلال الإنسان أثناء حياته وأثناء مماته وتجريده مما تبقى فيه من إنسية. فمن الموت الأليف، ومن زمن الموت الجميل، الموت وسط العائلة انتقل الغرب إلى "الموت القذر" بتعبير فيليب أرييس (6)، الموت في دار العجزة. لم يعد الموت كما كان في الماضي حدثا اجتماعيا تعيشه الأسرة ومحيطها، بل أصبح طابوها يشكل "الإخفاء إحدى ميزاته الأساسية ". لم يعد الموت شأنا عائليا يهم الأسرة بل شأن الاختصاصيين بحيث أصبح المال بديلا للقيم الرمزية فهو يعوض الهجر وفقدان الحنان والمحبة اللذين كانا يربطان بين أفراد الأسرة، وكما يقول فيليب أرييس : « إنها صورة جديدة بدأت تتكون عن الموت : إنه الموت القذر، الموت الذي يخفى، وهو يخفى لأنه قذر ووسخ « (7) .

هذه الدراسات المقارنة حول الموت في غالبها تهتم بماضي "الأنا" أو بحاضر " الآخر" ، وهذا التمجيد لحاضر " الآخر التقليدي " المنظور إليه باعتباره ماضي " الأنا " والمصحوب بالتنديد بمجتمع المتاجرة في الموت، كل هذا يدفع إلى الاعتقاد بأن هناك نوعا من الحنين إلى ماضي جميل وأن هناك رفضا لحاضر رديء، لكن اختزال اهتمامات باحثين كبار في الموضوع في الحنين إلى الماضي انطلاقا من كونهم يمجدون الإيديولوجيا الجنائزية التقليدية هو في حقيقة الأمر خيانة للمغزى والهدف الحقيقيين من وراء هذه الجهود. لأن الأمر لا يتعلق ببكاء على الماضي بقدر ما هو دفاع عن شروط أكثر إنسانية في ظل مجتمع هيمنت فيه المادة. فما يعتقد أنه دموع من حبر هو في حقيقة الأمر احتجاج وتنديد على

تشييء الإنسان ودعوة لاحترام كرامته. فالإنسان أصبح يفقد معنى» الحياة إذ لا يجد الوقت ولا المجال حتى لإدماج شيوخه والاعتناء بمرضاه وبموتاه « (8).

إذا كان الموت قد حظي باهتمام متزايد في العلوم الإنسانية فذلك من أجل لفت الانتباه للتفكير في مستقبل أفضل من أجل موت أفضل في حياة فضلى. ويجدر بنا في هذا الإطار أن نستشهد بنص لأحد المختصين في أنتروبولوجيا الموت ينتقد فيه طبيعة العلاقات الاجتماعية في الغرب، والتخلي عن الأعراف والطقوس الجنائزية ويندد بتجريد الموت من طابعه الاجتماعي. يقول لويس فانسان توما : « إنني لا أريد أن أختم محاكمتي للمجتمع المعاصر بكلام مر أو متشائم كما لا أريد أن يفهم من كلامي أنني من أهل الحنين إلى الماضي (...) بل على العكس أعتقد أنه بإمكان المجتمع الحديث أن يبتكر طقوسا جديدة انطلاقا من سلوكات حديثة (...) يكفي شيء من الوعي لبناء رمزية للغد وإعادة النظر في شعائر الأموات « (9).

إذا كان الموت قد أخذ كل هذا الاهتمام لدى علماء الغرب فإن الأمر يختلف عندما يتعلق بالخطاب العلمي العربي، ذلك أن الاهتمام بالموت كموضوع في الدراسات التاريخية أو الاجتماعية أو الأنتروبولوجية نادر جدا.

إن غياب دراسات تاناتولوجية في المجتمع العربي الإسلامي لا يعني أن الموت كان غائبا عن التفكير لدى الإنسان العربي، فمنذ ما قبل الإسلام حتى عصرنا الحاضر رسم الموت حضوره في الشعر وكان يمثل الحدث الملهم للرثاء، وعندما يذكر اسم الخنساء فإن أول ما يتبادر إلى الذهن هو الرثاء الناجم بالأساس عما أحدثه موت أخيها من حزن وأسى، ولقد شكل الموت موضوعا متميزا في شعر أبي العلاء المعري، أما في الشعر الحديث فيكفي الرجوع إلى قصائد بدر شكار السياب للتوقيع على حضور الموت بقوة في القصيدة العربية.

إن حضور الموت لا يقتصر على الشعر، بل شكل موضوع تأمل متميز في الخطاب الفلسفي، فالقضايا المرتبطة به كالعالم الآخر ومصير الجسد والروح والجنة والنار مثلت كلها مواضيع جدال واسع لدى المتكلمين وظلت تحوز على قسط وافر من تفكير فلاسفة الإسلام منذ الكندي. أما لدى الصوفية، فحضورالموت في تفكيرهم كان طاغيا، بل يمكن القول إن فكرهم نابع أصلا من تصورهم للموت وموقفهم من الحياة.

إذا كانت مكتباتنا العربية فقيرة في مجال الدراسات التاريخية والاجتماعية والأنتروبولوجبة حول الموت، فإنها على العكس تزخر بكتب الجغرافيا الجنائزية، وهي كتب يتفنن مؤلفوها في وصف عالم ما

بعد الموت وصفا يجعل منه عالما مرعبا يثيرالخوف ويبعث الاشمئزاز كـــ " أهوال القيامة " و" سؤال القبر " و" علامات يوم القيامة " و" دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار " ... وفي حالات أخرى نجده عالما مثيرا وجذابا بجماله وروعته كما هو الشأن في :" حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح" و" الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة " و" نعيم الجنة في القرآن والسنة " ... إلى غير ذلك من العناوين التي هي وحدها تلخص فحواها، إنها كتب تطلق العنان للخيال الذي يملأ فضاءاته بما يزين ويقزز، وهي تعكس الاعتقادات الشعبية السائدة وتعبر عنها كما تغذيها وتزكي وجودها، والغريب أن هذه الكتابات قد اعتمدها بعض الغربيين كمراجع للتعريف بالعالم الآخر من وجهة نظر إسلامية، فجاءت دراساتهم مجرد نقل لمتخيل شعبي إلى لغة أجنبية.

ليس هدفنا القيام بجرد للكتابات عن الموت في الإسلام ولا القيام بنقد ما كتب في هذا المجال بل كل ما في الأمر هو التأكيد أن هذا الموضوع قد نال من الاهتمام قسطا وافرا في تفكير الإنسان العربي. فالموت ظاهرة كونية، و التفكير فيه كوني في كل الأمكنة وفي كل الأزمنة وبكل اللغات.

إلا أنه وبالرغم من الاهتمامات اللاهوتية والفلسفية والأدبية بالموت، فإن الخطاب العلمي حوله يظل شبه غائب. فالموت تاريخيا كما هو الشأن في دراسات شورون وأرييس وفوفيل أو الموت سوسيولوجيا وأنتروبولوجيا وتمثل الموت، والإيديولوجية الجنائزة وتحليل الطقوس المصاحبة له، باختصار الموت كما يعيشه المجتمع اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا كما هو الأمر في دراسات بودريار وموران وتوما وإيربان كل ذلك يقل في افكر العربي إن لم نقل ينعدم.

صحيح أن مصر الفراعنة شكلت موضوعا خصبا أنبت دراسات متعددة كان الموت فيها الفكرة الأساس، صحيح أيضا أن هناك دراسات عن الموت في المجتمع الغربي نذكر منها على سبيل المثال الدراسات القيمة ل غابرييل كامب (10)وميشال بونسيش(11) وإميل لاووست(12) وجاك مونييه(13)وغيرهم، لكن تبقى هذه الدراسات أركيولوجية في معظمهما تهم فترة ما قبل الإسلام. أما الموت في الإسلام ومصاحباته الاجتماعية والثقافية فيبقى تناوله نادرا وحتى في حالة تناوله فإن الأمر لا يتعدى وصف طقوسه كما توصي به المذاهب الفقهية، أما البحث في أصولها والتساؤل عن وظائفها ومبررات وجودها فذلك ما يدخل في عداد اللامفكر فيه.

للإنسان أن يتساءل : لماذا غياب هذه الدراسات في المجتمع العربي الإسلامي ؟ هل يدخل ذلك ضمن قائمة الممنوعات كما هو الشأن بالنسبة للجنس أم أننا ننتظر ما وصلت إليه المجتمعات الغربية من فردانية وتفكير في الذات، أي الوصول إلى درجة لا يعبأ فيها الإنسان بموت حتى أقرب الناس إليه. في

الترجمة العربية لكتاب : " الموت في الفكر الغربي" يجيب المترجم في مقدمة كتابه عن هذا السؤال مستعيرا فكرة بوسويه في الموضوع بأن الإنسان يترع إلى دفن فكرة الموت دفنا لا يختلف عن دفن الميت ذاته. إنه الخوف من الموت، الخوف الذي يدفع الإنسان إلى عدم التفكير فيه والإلقاء به في أعماق ظلام النسيان وكبته .(14) فالموت شيء مرعب يجعل دراسته مبغوضة. إن الموت مخيف فعلا، دليل ذلك أننا نعمل على اجتنابه بكل الطرق، فكما أننا ننظر يمينا وشمالا قبل المرور من جادة طريق إلى الجادة الأخرى تجنبا لحادث سير مفترض، أي تجنبا للموت في نهاية المطاف، كذلك نتجنب الموت في الكلام والكتابة. فالنظر يمينا وشمالا قبل عبور الطريق سلوك هدفه تجنب الموت، وعدم الكلام عن الموت هو أيضا طريق للهروب منه.

هوامش

1- C. LEVI-STRAUSS, Anthropologie structurale, Plon, Paris, 1958 et 1974, t. 1, p. 68.

2- M. FROMAGET, "L'observation et la signification de l'évolution des rites funéraires occidentaux", in B. S. T. , n_ 62-63, 1985, p. 26.

3- F. CHATILLON, "Actualité et permanence des rites funéraires. Introduction au XVI e congrès de la Société Thanatologique", in Bulletin de la Société de Thanatologie (B. S. T.), n_ 66-67, p. 5

4- تشكلت في فرنسا مثلا جمعية لدراسة الموت وتضم علماء مرموقين في تخصصات مختلفة، وتصدر مجلة دورية.

5- A. FABRE-LUCE, La Mort a changé, Ed. Gallimard, Paris, 1966.

6- PH. ARIES, L'Homme devant la mort, Ed. Seuil, t ل II, Paris, 1977, p. 277.

7- Ibid.pp 278 - 279

8- L.V. THOMAS, Rites de mort. Pour la paix des vivants, Ed. Fayard, Paris, 1976. J. BAUDRILLARD, L'Echange symbolique et la mort, Ed. Gallimard, Paris, 1976. J. ZIEGLER, Les Vivants et la mort, Ed. Seuil, Paris, 1970.

9- L.V. THOMAS, Rites de mort. Pour la paix des vivants, op. cit., p. 37.

10- G. CAMPS, Aux Origines de la berberie. Monuments et rites protohistoriques, Arts et Métiers, Paris, 1961, p. 627.

11- M. PONSICH, Nécropoles phéniciennes de la région de Tanger, Etudes et travaux d'archéologie marocaine, Ed. Marocaines et Internationales, Tanger, 1967.

12- J. BOURRILLY ET E. LAOUST, "Stèles funéraires marocaines", in Hespéris, Revue de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, n_ 3, Librairie Larose, Paris, 1927

13- J. MEUNIER, "La nécropole de Foum le-Rjam, Tumuli du Maroc présaharien", in Revue Hespéris, t. XLV, 1958, pp. 95-142.

14- شاك شارون : الموت في الفكر الغربي، ت يوسف حسين، تقديم إمام عبد الفتاح، عالم المعرفة، ، أبريل 1984، ص 9